بريان [1]

يرى من زور مقاطعة بريتاني في شمال فرنسا الغربي ، سياجاً عالياً يفصل مزرعة كل فلاح عن مزرعة جاره . فالقوم هناك يميلون الى العزلة تشهد آثارها في رغبة الصيادين عن المباسطة في الحديث ، حتى اصطخاب الآلات وضوضاؤها في بلد صناعي كبلد نانت، لم يخرجا بهم عن رغبتهم المشهورة في الصمت . انهم سلتيون [2] ويمتون الى البريطانيين بصلة السلالة

لما ولد بريان سنة ١٨٦٢ — من سبعين سنة — ورث دماً خليطاً من والديه . كانت أمه غسالة وأسرتها فلاحة من الطبقة المتوسطة . ولكن بين اسلافه رجل نبيل المحتد من الأسر الارستقراطية في تلك الناحية . ففيه اتحدت عناصر ثلاثة — الفلاح والارستقراطي والبريتاني . والرجل السياسي الذي خرج من اتحاد هذه العناصر ، كان غريب الاطوار ، يختلف كل الاختلاف عن معاصريه من رجال السياسة في أوربا . انهُ يفوقهم على الاقل في طول الزمن الذي ولي فيه الحكم ، ولعله يفوقهم حزماً كذلك !

ورث من اصله السلتي ، تلك العينين الزرقاوين اللتين ترأودها الاحلام ، كعيون البحارة من ابناء مقاطعته ، وذلك الميل الى العزلة والرغبة في الابتعاد عن الاجتماع والاقبال على الحياة الخشنة القشفة والنزوع الى الفوضى . ومن اسلافه الفلاحين ورث انحناءه وشعره الكث وبعض دهائه . ومن منبته البورجوزي — الطبقة المتوسطة — اخذ زهده وخوله . ومن صلته بالعمال تناول رغبته العامة في تحسين الحالة العامة وثقته الكبيرة بالجماهير . ولكن يديه يدا ارستقراطي صميم ، وصوته موسيقي رخيم ، شبهه بعضهم بصوت « الفيولنسلو » وهو كذلك يتصرف تصرف الرجل المجرب المهارس لحياة الاجتماع ، ويمتاز بدهاء رجال السياسة من زعماء المدرسة القديمة كتاليران ودزرائيلي

ان تحليلاً موجزاً كهذا التحليل لماضيه وصفاته ابعد ما يكون عن بيان الرجل على حقيقته ولكنهُ يفهم شيئاً من الدهشة التي يثيرها النظر في صفاته المتباينة المتناقضة . اذ قل من ادرك ان بريان شخصية معقدة النواحي . وكلما ارتفعت شخصية من هذا القبيل في سلم المقام الاجتماعي زادت دهشتنا لدى تقليب النظر في ما نشهده فيها من تناقض

ان بريان بطبعه رجل خمول ، لا شيء احب لديه من عيشة الكسل ، والقذف في زورق

---

(١) من مقال لاميل لدرغ الكاتب الالماني الشهير (٢) السلتيون او الكلتيون Celts سلالة قديمة كانت تقطن بلدان غرب اوربا وسمي بلدانهم المتوسطة

صغير ، والاكل والشرب والمباسطة في الحديث ، والنظر الى الحسان ، ومكالمة الكلاب . وليس ثمة الا الطموح دافعاً بهذا الرجل الكسول ، الراغب في الراحة والطمأنينة ، الى تحقيق ما يحسبهُ عدلاً في وجه مقاومة شديدة من رجال البرلمان الفرنسي ، عن طريق ذلك الفن الفرنسي — الفصاحة الخلابة ! فقد كان في حداثته متحمساً لبعض الآراء ، ثم انصرف ذهنه عنها في كهولته ، ولكنهُ عاد اليها في شيخوخته وهو اشد تحمساً لها وتعلقاً بها . ان لفظة « التسامح » اجمع الالفاظ لمناقبه ، لان كل ما تم على يديه انما تمَّ عن طريق صبره وتسامحه . وقد كان غرضهُ ان يبثّ مبدأ التسامح في الغير ، وفي كل نزاع خاص ، بين الطبقات او بين السلالات او بين الامم والعقائد . كان يعمد الى التوفيق بين النزعات والمطالب المتباينة في حسم النزاع . وقد سعى الى ازالة اسباب الخصام القومي المعاصر ، بتطبيق روح القرن الثامن عشر ، وهو الروح المطبوع بطابع الانسانية العامة

ان اسلوبهُ في تحقيق اغراضه لم يكن اسلوب الرجل القائل « انا اريد ، وأنت يجب عليك » لكن طبعه الموسيقي كان ينزع به الى ان يقول « يجب على الانسان » او « ألا يستطيع الانسان ان يفعل كذا وكذا ؟ » . ان اعتداله وهدوء نفسه جعلاه من القلائل في ميدان السياسة الذين لا يحقدون ولا يحفظون اذا خذلوا في معركة ما ، فهو اذا طلب الحكم وتقلده ، لم يتمسك بأذياله ، وقد اشتهر في حياته السياسية الطويلة بأنه كان يستقيل قلما يضطر الى الاستقالة اضطراراً . اضف الى ذلك انه من النادرين الذين اذا انتصروا لم يشمخوا ، لانه كان شديد العطف على المخذول ، نافذ البصر الى نفسه ، والى الخير العام . فقد عرف كيف ينتصر من غير ان يدمي كما تعلمَ ان ينهزم من دون ان ينهشم تهشماً يحمله على الخروج من الميدان

هذا الرجل الذي قلما عدا او اسرع في حياته ، وقلما وجه لفظاً حاداً الى انسان أيّاً كان ، هذا الرجل الذي اعفته الاقدار من وجوب اصدار حكم فاصل مفاجىء في موقف حرج ، كان لشدة تساهله وصدق عطفه ضعيفاً ، وكثيراً ما رجع ، كتابةً ، عما وعد به محادثةً او مفاوضةً . ولكنه اذا خطب في جمهور ، احرز النصر ، بشجاعته وعبقريته الخطابية — لان بريان مهما يقل فيه فنان ، يغني ويتعلم ويتمعن — كالاطفال والنساء — لا نظام له في ذلك ، معتمداً على الفطرة . وهو يفضل — كما تفضل كل امرأة بارعة — ان تدور حول عقبة تقوم في سبيله بدلاً من ازالتها . ولما كانت معظم الآراء التي قرن اسمه بها من وحي الخاطر ، اعتقاداً منه بصدق بداهته ، اشتهر بأنه مرتجل يلقي الكلام على عواهنه من دون درس او تحقيق . وهذا طراز من الرجل لا يسلم به الذهن الفرنسي الدقيق المنطق . ومع ذلك لا اعرف بلاداً غير فرنسا في امكانها ان تجعل بريان في عداد زعمائها وترفعهُ الى المقام الاعلى

قال بريان لاناطول فرانس يوم اجتمعا اولاً « انت رجل طيب » فقال فرانس « لست بطيب

على الاطلاق . لانني لا املك الا العطف . ولذلك اخدع كثيراً . انت رجل طيب »

فقال الرجل الثالث الذي جمع بينهما « وبريان رجل طيب كذلك . انه انسان لا اكثر ولا اقل » فابتسم بريان موافقاً وخرج متمماً لانه قلما يرغب في سماع المديح الموجه الى انتصاراته ولكنه لا يعالج في توجيه المديح الى « طيبة قلبه »

اذا نظرت الى صورة بريان في صباه — في البادسة عشرة من العمر — وجدته وسيم الطلعة طويل الشعر ضيق الحدقتين ، فتحسبه شاعراً شديد الاحساس او ارستقراطياً مؤصلاً لا من ابناء الاسر الفقيرة . وكان في المدرسة بليد الذهن ، فكان يخرج مع معلمه كل احد للنزهة وكان المعلم يقول لتلميذه « انظر الى النباتات والازهار ، وتعلم من الطبيعة . فقلما تجد حكيماً اصبح حكيماً بالمطالعة » . قال بريان : « فتلقيت الدرس ولذلك لم اقرأ في حياتي »

ولاريب انه يغالي فيما يقول . ولكن لاريب كذلك في ان معظم معارفه ملتقط من احاديثه مع الناس . ولما كان ذكي الذهن ، مطبوعاً على الابداع ، فانه كان يلتقط ما يهمه او يفيده . وهكذا قضى حياته السياسية الطويلة من دون ان يوسم بالجهل المطبق . وقد تعرف جول قرن الروائي الفرنسي المشهور الى الفتى بريان عن طريق معلمه المذكور فوصفه في احدى رواياته باسم « بريانت » فقال في وصفه

« لم يكن مجتهداً ، بل كان ذكياً . كان غالباً في مؤخر الفرقة ولكنه كان يستطيع ان يشق طريقه الى الامام اذا اجتهد . كان مغاراً مقداماً محباً للقتال ، ولكنه كان مع ذلك حلو المعشر دمثاً يبشر بالتسامح والمسالمة . قال يوماً زملائه على الجزيرة وهو زعيمهم « لن امنع عنكم شيئاً . ولكن إذا سعى كل منكم ونصب عينيه الخير العام ، لن يضطر احدكم ان يستأذن الزعيم اذا رغب في عمل معقول »

وقضى بريان ثلاث سنوات في الحي اللاتيني ينقل رسائل بخطه ليعيش في اثناء تلقي العلم . فكان يقول لما اشتهر اذا طلبه احد لاخذ توقيعه او عبارة بخطه « تجدون جملة كبيرة من الاوراق التي كتبتها ، في ذلك الدكان » . واخيراً فاز بلقب دكتور في القانون وأصبح محامياً . وفي ميدان المحاماة اكتشف ما اشتهته عليه الطبيعة من هبة الفصاحة . وهذا الاكتشاف حدا به الى خوض ميدان السياسة واتجهت اليه الانظار اولاً ، اذ كان في الثلاثين ، بعد خطبة بليغة خطبها في مؤتمر الاشتراكيين في مرسيليا

ولماذا اخذ بريان بالاشتراكية ؟ ان جوريس — وهو خطيب عظيم كذلك — اقبل على الاشتراكية عن طريق البحث والتنقيب والاقتناع بأن مبادئها خير ما تحتاج اليه الامم . اما بريان فتوصل الى العقيدة نفسها لانه اتفق انه منحدر من اسرة فقيرة ، ولأنه خبر بنفسه سوء الحال في مدينة صناعية . وكذلك حمله شعوره من الظلم ان ينضم الى صفوف الثوريين

برهة على اثر منعه من المرافعة زمناً لخطاء ارتكبه . ولكنه مع ذلك قال في مقالة كتبها وهو في الثانية والعشرين : — «هل تكون ثورة المستقبل دموية ، مثل كل الثورات التي سبقت ؟ انا لا اعتقد ذلك ، بل سوف تقع كما تسقط ثمرة ناضجة من الشجرة »

لذلك لا تراه في حداثته مشاغباً في سبيل الثورة حتى وهو واقف لابساً قميصاً يخطب في جمهور من العمال بل على الضد من ذلك كان يدعو دائماً الى الاضراب العام كأداة لانصاف العمال وزيادة شعور العامل بمكانته

وكان بريان في حداثته شديد الحماسة في الدعوة الى السلام . ان طبيعته المتسامحة المحبة الانسانية الميّال الى الطبيعة والحيوانات والنباتات بغض اليه رجال الحرب والقوّاد بوجه خاص

ولذلك انضمّ الى صفوف المقاومين للنزعة القومية المكتسحة ، وحدا به تفوره من الحرب الى الايمان بوحدة الامم . هذه العقيدة — لا ايمانه بحرب الطبقات — حفظته في صفوف الاشتراكيين كل حياته . فلما دعا صديقه هرفه في سنة ١٨٩٤ الى وجوب الفرار من الجندية — مع انه كان في اوائل المتطوعين سنة ١٩١٤ — ودعي بريان للدفاع عنه قال في دفاعه : « اذا صدرت الينا الاوامر باطلاق النار على عدوّ ، لا نعترف به عدوّاً ، حولنا اسلحتنا الى الجهة المقابلة » !

واشتغل بالمحاماة بضع سنوات ثم انتخب عضواً في مجلس النوّاب وعني بكتابة مقالات في صحيفتي « المصباح » (لانترن) و« الانسانية » (اومانيته) على انه لم ينصرف الى المطالعة والدرس كبعض معاصريه (برانكاره) وكان اذا حجزه اصدقاؤه في غرفة وطلبوا اليه ان يكتب مقالاً افتتاحيًّا وعادوا اليه بعد ساعة وجدوه جالساً في سحاب من دخان التبغ وليس امامه على الورق سطر واحد . فقد كان يؤجل ما يستطيع الى التأجيل سبيلاً

كانت فرنسا لما دخل بريان مجلس النواب وهو في نحو الاربعين معنيّة اشدّ العناية بالنزاع بين الكنيسة والدولة . وكان النزاع يدور حول المسألة الآتية : من يعين الاساقفة ومن يحدّد سيطرتهم التعليمية ؟ وكان قد انقضى ثلاثون سنة ورجال الاحزاب المتطرفة يطلبون فصل الدولة عن الكنيسة . فلو ان ملكاً حاول ان يحلّ هذه المسألة قبل ١٣٠٠ سنة لكان حلها بجرة قلم . ولكن علاقة الكنيسة بالدولة مسألة ما زالت مسيطرة على التاريخ الفرنسي من نحو الف سنة . حتى نبوليون اضطرّ ان يخضع لها ويسلّم بعقد « كونكوردا » (معاهدة بين البابا والدولة) وها نحن في سنة ١٩٠٣ تثير مسألة تعيين اساقف هذا النزاع القديم

اما بريان فادرك المكانة التي يناطها السياسي الذي يحلّ هذه العقدة . وقد قال لي « انه عرض للموضوع صدفة . فقد كان يظن ان علاقة الدولة بالكنيسة من مواطن الضعف في بناء الجمهورية وقد كان يريد طبعاً ان يضع قانوناً من شأنه تدعيم الجمهورية »

هل رجع الى كتب التاريخ والمنشورات والوثائق الرسمية ؟ هل كان يتجاهل كاهناً اذا مرّ به في الطريق حقداً ومرارة ؟ ماذا فعل هذا الرجل الذي كان يبغي ان يخرج السلطة الزمنية من يد الكنيسة في فرنسا ؟ ذهب الى الكهنة في الارياف وشرب معهم خمر « برغندي » المعتق وزار البروتستانت واليهود ، وجمع منهم جاعات حول مائدة واحدة ثم جعلهم يتناقشون في الموضوع — قال : — « ان الانسان يتعلم في مدى اربعة اسابيع تقضى في الريف اكثر مما يتعلم في مدى اربع سنوات تقضى في البرلمان » . وهكذا وصل الى حكم لا يجرح اي فريق جرحاً دامياً فتمّ له الاتفاق الذي يبغيه كل محام كبير

بهذا الحل الموفق لهذه المسألة المعقدة تحول بريان من رجل حزبي الى سياسيّ فوق الاحزاب. ولما عين وزيراً للمعارف والعبادة لكي يتمكن من تنفيذ قانونه وجب عليه وهو اشتراكي ان يقبل الانضمام الى وزارة بورجوازية . هل يفعل ذلك ؟ على هذا الحكم يدور مستقبل حياته. هل يفضل حزبهُ ومعارضة الحكومة على تحقيق فكرة اقتنع بصوابها ؟ هذه هي نفس المسألة التي عرضت للمستر مكدونلد في شهر اغسطس ١٩٣١ لما الف الوزارة البريطانية القومية.

اما عقيدة بريان الاشتراكية فلم تكن قائمة على مبدإ حرب الطبقات (اي النزاع بين طبقة العمال والبورجوزي) ولذلك لم يجد عائقاً في الاحتفاظ بعقيدته الاشتراكية الخاصة والاشتراك في وزارة من طبقة يناهضها الحزب الاشتراكي . كان قبل سبع سنوات قد خطب خطبة نارية اذ انتقد ملران الاشتراكي في وزارة بورجوازية وها هو الآن يفعل الفعل نفسه !

ولما سألتهُ عن النزاع النفسي الذي ساوره في تلك الايام قال لي : — « اتعلم ما فعلت ؟ لم استطع البقاء في الحزب، ولم اشأ ان انفصل عنه . فاخذت اجازة وقد امتدت بي الاجازة الى الآن »

على ان الخطوة الجريئة التي خطاها ، فانتقل بها الى الوزارة بين خصومه السابقين لم تلبث حتى افضت به الى مأزق حرج . ألم يدعُ وهو في الحزب الاشتراكي الى وجوب تأليف نقابات للعمال ، ضد القانون ؟ ومع ذلك يجب عليه الآن وهو وزير ان يهاجم زعماء هذه الدعوة نفسها

فلما تفاقم الاضطراب في دوائر العمال ، وحدث اضراب عمال سكة الحديد سنة ١٩١٠ استعمل سلطته السياسية لاعادة المضربين الى ورشهم . وقرأ في صحيفة « الاومانيته » كيف قبض على زعماء الاتحاد حيث كان هو يقف خطيباً داعياً الى استعمال الاضراب وسيلة لتحقيق مطالب العمال ! في تلك الايام القاتمة انفضّ من حوله الاصدقاء وبقي بانانه ، وكان من اشد مؤيديه سنوات لايكلمه . ولكن لما فشل الاضراب بحزم بريان وقف على منبر المجلس ومدّ ذراعيه قائلاً « انظروا يديّ ليس عليهما دم »

كان قد مضى على هذا التحول في اتجاهه السياسيّ سنوات وهو في دور الاختبار . الا تسمع صوت ضميره يحاول تسويغهُ في خطبة خطبها في مجلس النواب لما تولى رآسة مجلس الوزراء اولاً فقال :

لا يطلب مني ان اتخلى عن الآراء التي ادعو اليها واتمسك بها لان الحياة والتبعة الحكومية علمتاني ما يناقضها . فلبُّ كل رأي عندي هو الى اي مدى تستطيع تنفيذه . اننا نريد ان نحكم — اي اننا نريد ان نحتفظ بمزايا الحكومة كاملة غير منقوصة ، نريد كل شيء وكل انسان ان يكون في مكانه » ... ثم انقضى على ذلك اثنتا عشرة سنة فخطب قائلاً : — « في كل حكومة ووزراء تستطيع ان تتخذ من خطبهم ومقالاتهم السابقة اقوالاً تناقض افعالهم. وانا كانت لي احلامي للشبان ولكنني اشعر بتبعة الحكم . فأنا كالحجر الذي لبث زمناً في مجرى النهر . لقد تكسرت نواشزه وفقد خشونته ولكنهُ لا يزال محتفظاً بشكله الاصلي »

ولما سألت احد اصدقائه ، وهو لا يزال من زعماء الاشتراكيين الى يومنا هذا ، عن رأيه في تحوُّل بريان هذا قال : — لما كان السلاح الالماني يهدِّد سلامتنا كان الاضراب العام سبيلنا الى فقد حريتنا . ولو اني علمت حينئذٍ ما علمهُ بريان في منصبه الرسمي ، لكنت فعلت ما فعل »

بين سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩٣٠ تولى بريان منصب رئيس الوزراء احدى عشرة مرة وتولى مناصب وزارية اخرى ، اشهرها في وزارة الخارجية ووزارة الحقانية — نحو اثنتي عشرة مرة . فهو مثل بسمارك قد ولي الحكم مع احزاب اليسار واليمين على السواء . بل ان ولاية الحكم مع الفريقين كان سهلاً عليه ، لان في مجلس النواب الفرنسي احزاباً كثيرة يمكن ترتيبها في اشكال مختلفة . على انهُ لم يكوِّن حزباً خاصًّا به بل ظل منفصلاً عن اي حزب بعينه . وهذا هو سرّ الاحتفاظ بمقامه طول هذه السنين وهو في الذروة

انهُ شبيهٌ بالموسيقي المبدع اذا شاء غنى أو وقع منفرداً . ولكنهُ يستطيع ان يوقع في اية فرقة يقودها اي مدير ، بل انهُ يستطيع ان يتولى ادارتها بنفسه ويجيد ذلك . ولا يستطيع ان يبقى الحكم في بلادٍ ، احزابها السياسية ، في تبديل مستمرٍّ من حيث علاقتها بعضها ببعض ، الا رجل ذو خيال وثاب ، لهُ من دقة الحس ما يقيه عواقب العثرة والسقوط

ولما كان بريان لا يجيد المفاوضة لانهُ لا يملك عنان الموضوع الذي يفاوض فيه ، فهو يستمد نجاحهُ من بلاغته وفصاحته . لقد سمعتهُ يخطب في جنيف وفي مجلس النواب الفرنسي ، وفي مأدبة لا يزيد حضورها على مائة ، فدهشتُ في كل ذلك للبساطة والسهولة اللتين يبدأ بهما الكلام . انهُ لا يعمد الى الحيل المسرحية في استرعاء عناية الحاضرين ، ومع ذلك فهو ممثل مبدع . باشارة بسيطة واحدة ، من الذراع أو الرأس أو العينين ، يستولي على الجمهور

ولما قال بوانكاره ان بريان « قائد عظيم من قواد الالفاظ » عنى ان بريان يستطيع ان يعبئ جنوده في امنع مواقع خصمه أو اضعفها . ان براعتهُ الخطابية كانت قائمة على عدم اعداد خطبه ، لانهُ كان من الخطباء القلائل الذين يستطيعون ان يعتمدوا على شعورهم ومشاهدتهم واحساسهم ما يجول في نفس الجمهور وذهنه ، فيطبق خطابتهُ على وحي الساعة . انهُ لا يعمد قط الى

احداث التأثير الذي يتوخاه » بالفاظ رنانة » يعدّها قبل ارتقاء المنبر . كان يخطب في جمعية الامم بجنيف خطابة تختلف عن خطابته في مجلس النواب الفرنسي ، وكلتاهما تختلفان عن خطابته في خمسة آلاف فرنسي متجمهرين في الشارع . ولكنهُ لا يتكلم الفرنسية الصافية العريقة . وقد حاول احد زملائهِ المشهورين بصفاء الاسلوب ، ان يبين لي : الاغاليط النحوية والصرفية الكثيرة التي تحتوي عليها خطب بريان . ومما لا ريب فيهِ ان خطبه اشدُّ وقعاً في النفس وهو يلقيها منها وهي تقرأ على صفحات الجرائد . وليس سبب كل هذا صوته الرخيم . فقد قلت له يوماً «يشاع عنك انك تخطب من دون ان تعد خطبتك . ولكن ألا ترتب شيئاً في فكرك قبل ارتقاء المنبر» فقال «لا» . فقلت ألا تعد العبارة التي تفتتح بها الخطبة على الاقل فقال «لا» فقلت «ماذا تعرف اذاً قبل ان تبدأ في الخطابة » قال «النتيجة والادلة . اسمع . ان معظم السياسيين يسيئون الى خطبهم لأن افكارهم متجهة اما الى التاريخ ليأثر عنهم اقوالاً او الى الصحف . والواقع ان احداً لا يستطيع ان يعد خطبةً ما . كل شيء يتوقف على وحي الساعة . اني انظر في وجوه الحاضرين دائماً فاذا رأيت انساناً يتثاءب ، غيرت مجرى الكلام ، فاذا ابدى عناية بالاتجاه الجديد ، رأيت ذلك في عينيهِ . واذا كنت مالكاً عنان الموضوع ، تمكنت من تغيير اتجاه الكلام في اثناء الخطابة كثيراً ؛ فاذا لم يؤثر اتجاه معين في كل الحاضرين أثر الاتجاه التالي في بعضهم وهكذا . السر في كل ذلك ان لا تسمح للضجر بالتسرُّب الى الحضور . والاَّ ضعت»

ولما ولي رآسة الوزارة الفرنسية سنة ١٩١٥ ابدى ما طبع عليه من رباطة الجأش في تلك الايام العصيبة . ومع انه كان من اشداء اعداء الحرب ، اعترض على نقل العاصمة الفرنسية من باريس الى بوردو في اثناء معركة المارن ، وكان اول العائدين الى باريس بعد الفوز فيها . وفي منصبه الجديد اخرج خطة جديدة للحرب . قال : — لما كانت المانيا اقوى اعدائنا فلنهاجم اضعف هؤلاء الاعداء ولنغلبه على امره . وهكذا خطر له ان يجمع جيشاً يبعث بهِ الى سالونيك بعد الفشل في مغامرة الدردنيل ، لمهاجمة تركيا وبلغاريا والنمسا من ناحية بلاد اليونان . فعارضهُ في ذلك اركان الجيش الفرنسي ودعا كتشنر هذه الخطة « مغامرة البلقان » فاندفع بريان بعقتهِ للقواد ؛ الى تنفيذ خطتهِ نهزاً بهِ الخبراء . فلما فشل الهجوم الذي قام بهِ الجيش الفرنسي في سنة ١٩١٦ سقطت وزارتهُ . ولكن خطة «المغامرة البلقانية» تمت بعد خروجهِ من الوزارة ، وهو بعيد عن اي عمل رسمي ، فكان تنفيذها من العوامل المباشرة التي افضت الى نهاية الحرب الكبرى . ولما علم كلمنصو ان بريان يسعى لتقصير امد الحرب بمفاوضات غير مباشرة مع الاعداء هدده بتهمة الخيانة الكبرى . ولكن بريان كان حذراً . فاصدقاء السلام حينئذ ينمون عليه فتور تأييده لهم ، كما فعل كايو فكان السجن من نصيبهِ

وكان لبريان عدوان احدهما يرانكاره . ومن الاقوال الشائعة في شوارع باريس « ان

بوانكاره يعرف كل شيء ولا يفهم شيئاً . واما بريان فيجهل كل شيء ويفهم كل شيء »
قال لي احد اعضاء وزارة بريان في اثناء الحرب : « كان بوانكاره يتمعض اذ يرى جهل رئيس وزارته باحدى البرقيات الخطيرة . ولكن بريان كان يحتفظ برباطة جأشه ، ويقرأ البرقية ويغير رأيهُ » . لان الفرق بين بوانكاره وبريان انما هو الفرق بين موطنيّ الرجلين — لورين وبريتاني — . فبوانكاره دقيق ، واسع الاطلاع، متعالم ، خالٍ من الخيال . اما بريان فلا يسري على نظام ، تراوده الاحلام ، ولا يعتمد الا على قوة خياله وشعوره

اما النزاع بين كلمنصو وبريان فكان نزاعاً بين مبغض بطبعه وهو كلمنصو ، ومحب بطبعه وهو بريان ، بين هدّام وصديق للانسانية . ولكن الرجلين اشتركا على الاقل في صفة واحدة . فالتاريخ يشهد ان كلمنصو نفخ في الفرنسيين روح الشجاعة حتى الاستماتة في الحرب . اما بريان ، وهو عدو الحرب اللدود فلم يقصر عنهُ . فانهُ حمل تبعة معركة فردون برباطة جأش نادرة ، وانقذ مَنْ حولهُ من الهبوط الى دركات اليأس والقنوط

ولكن النتائج التي وصلا اليها تختلف . فكلمنصو كان من دعاة القوة الوحشية — وُلِد ليحارب . كان يبغي ان يشرب كأس الثأر الى الثمالة ، وقد بنى خطتهُ في وضع معاهدة السلام على ان الطبيعة البشرية لن تتحوَّل ، وان السلام في اوربا سراب . واما بريان فنهج منهجاً جديداً . فانهُ اشار الى نفسهِ اذ خطب في مجلس النواب بعد انقضاء عشر سنوات على معركة فردون فقال : — « ان الرجل الذي حمل شرف تلك المعركة وتبعتها ملأه مشهد المجزرة هلعاً ، فاقسم امام ضميره ، اذ احرز النصر ، واتيحت الفرصة ، ان يستعمل كل مقدرته وسلطته وحياته لتأييد قضية السلام ومنع تكرُّر مجزرة كهذه »

فما شهد بريان الحرب بعينيه وزار الجنود في الصفوف المتقدمة اصبح اشدَّ مقاومة لها مما كان . وكان من نصيب اوربا — او سوء نصيبها — ان يشرف كلمنصو ، لا بريان ، على وضع معاهدة السلام . وكان بريان حينئذٍ في باريس لا يكاد يجرؤ على الظهور

قال لي يوماً « اني احب ولسن كاليناً كريماً ولكنه غير عمليّ . فانه صرف جانباً كبيراً من عنايته الى الحدود الاثنوغرافية (الاثنوغرافيا علم توزيع السلالات البشرية) والواقع ان الامة المؤلفة من سلالات مختلفة لها من تاريخها العام رابط اقوى من رابط القربى . فنحن الفرنسيين خليط من خمس سلالات او ست ، ولكن المخاطر التي تعرضنا لها والاشتراك في الذبّ عن حياضنا قد وحّدت بيننا . فقلت « ومع ذلك ايّدت ولسن كل التأييد » . فقال « لا ريب في ذلك . لانني لو اشتركت معه لكنا افلحنا في انشاء الوسائل اللازمة لتحقيق السلام الذي اراده لجمعية الامم وهو السلام الذي ينقصنا اليوم نقصاً معيباً . ولكن من الجور ان توجه اللوم دائماً الى جمعية الامم . الم تمنع وقوع حرب في ثلاث ازمات على الاقل ؟ » « لها تتمة »

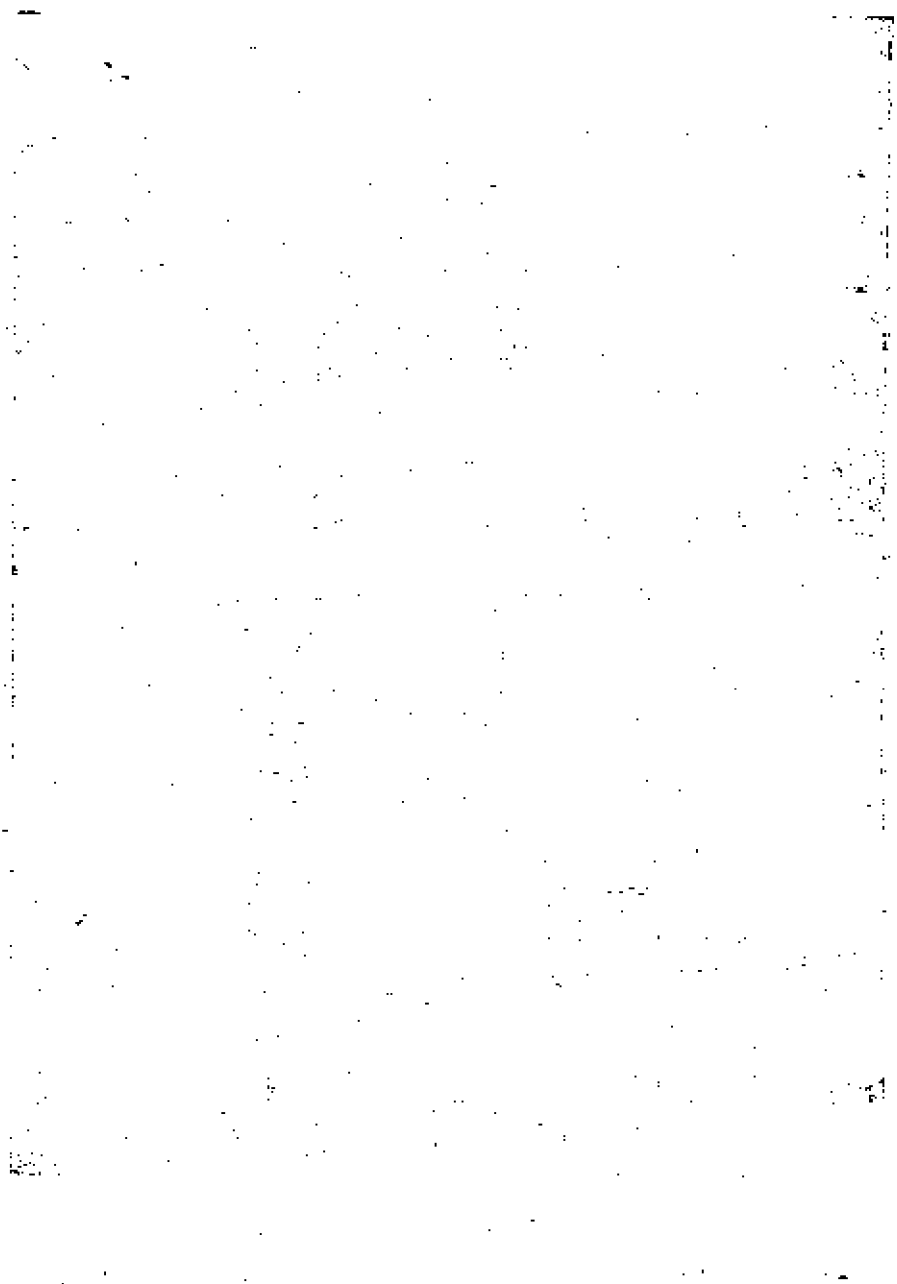

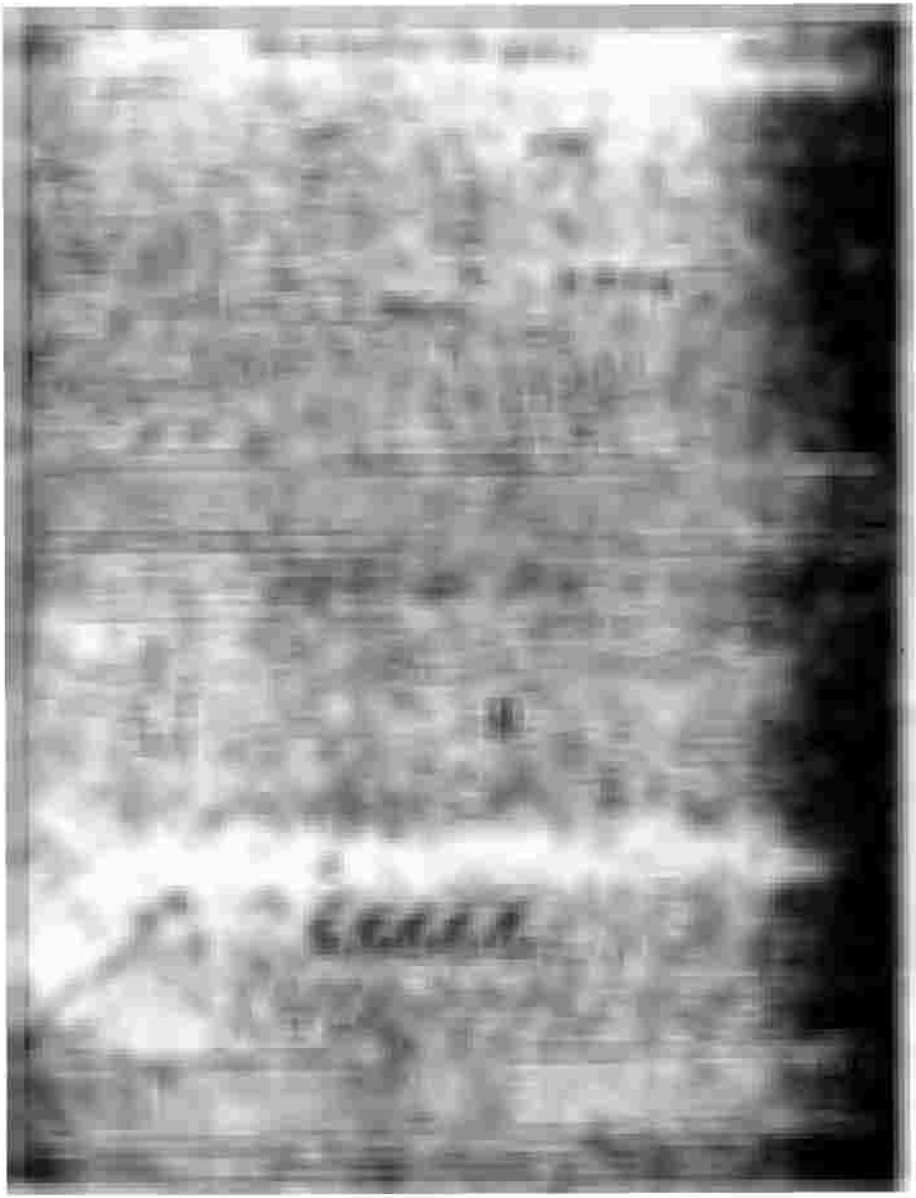

سفن مصرية صنعت في عهد الاسرة الثانية عشرة

مقتطف مايو ١٩٣٢ امام صفحة ٥٨٧

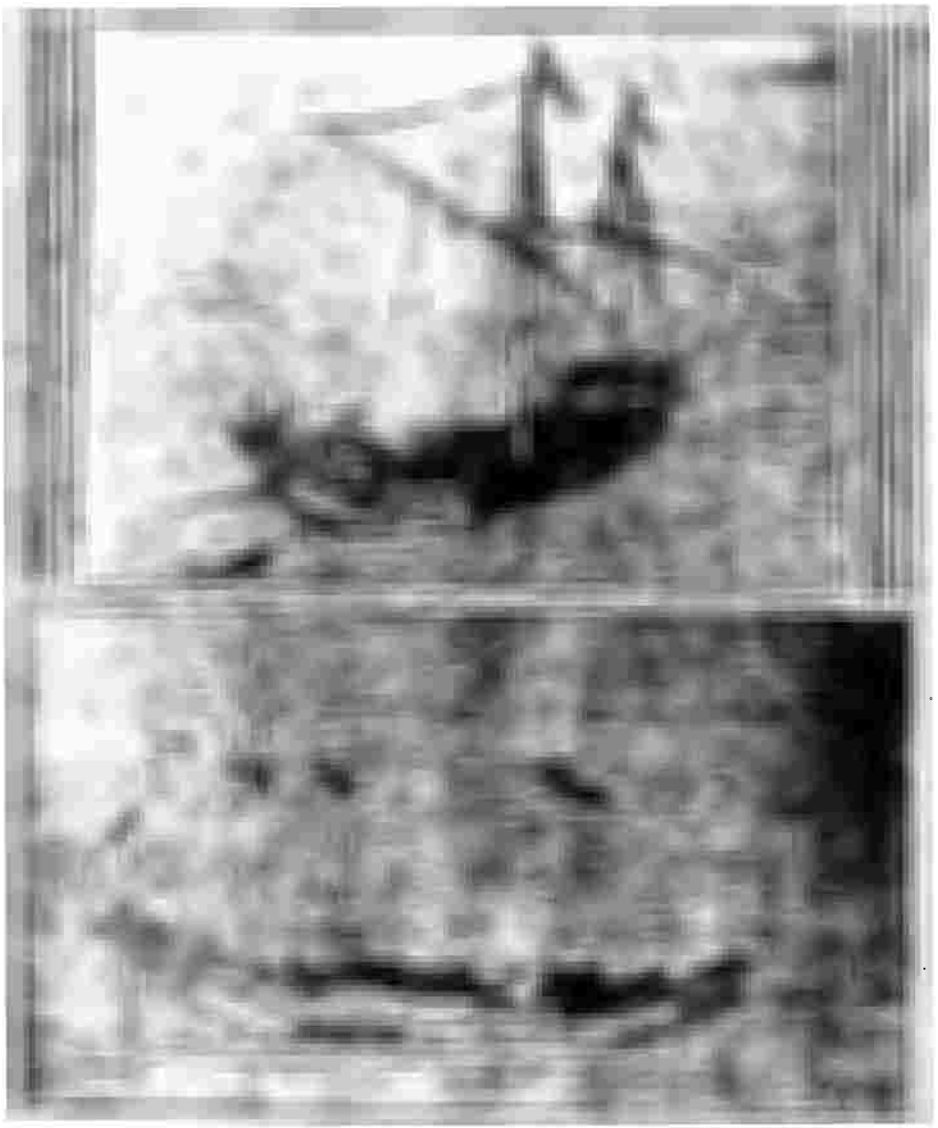

صناعة السفن في عهد الاسرة الثانية عشرة